التشفي الشعري في الأدب العربي القديم

ا.د. ضياء غني العبودي
مرتضى حسين البدري
كلية التربية الإنسانية
جامعة ذي قار / العراق
thyambc@yahoo.com

الملخص:

افرزتْ الحياة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي مجموعة من الشعراء كانوا يضمرون الحقد والبغضاء لرجالات الدولة العربية، ما بين صحابة لرسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) وتابعين لهم، كان لهم شأنٌ في الدولة وتثبيت عمادها والخلفاء والأمراء الذين تسنموا مناصب سياسية وإدارية مهمة في الدولة؛ لذلك ولَّدت خلافات سياسية مع بعض الشعراء حتى تناولوهم بأشعارهم نقمةً منهم، وفضحهم، وإشفاء لغليلهم منهم.

الكلمات المفتاحية :الجرأة ; التشفي ; الخلفاء ; الهجاء

Abstract

In the era of Islam and the Umayyad era, a group of poets, the Umayyad victory, created a group of ethnocentric humanity. This led to political differences with some poets, until they took their poems with their vengeance, exposing them and healing them.

Keywords: audacity; Healing; The caliphs; Spelling

المقدمة:

كان الدور الذي لعبه الصحابةُ في حمل أعباء الرسالةِ السماويةِ شاقاً ومتعباً، فقد قتلَ بعضُهم وهُجرَ البعضُ الآخر في سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، تلك الكلمة التي ابتدأها شخصٌ واحدٌ ليبلّغ عشيرته الأقربين بأمر من الله تعالى:﴿أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] فجاءت التلبية من عددقليل جداً منهم، ومن ثم دخول الناس في دين الله افواجا، حتى آلتْ الدولة لهذا الدين، فأصبح له خلفاء وأمراء، وقد احدثت الظروف لهم أعداءً من الشعراء أخذوا يهجونهم بعد موتهم، فضلاً عن التشفي من صحابة رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) والتابعين لهم، لذلك جاء البحث على قسمين هما :

أولاً : التشفي من الصحابة والتابعين

ما أن انفتح المسلمون بعد هجرتِهم الى المدينة وأخذوا ينشرون تعاليم الدين الحنيف في ارجاء المدن القريبة منهم مقدمين الدين على كل ما يحبون مضحين بالغالي والنفيس من أجل الرسول والدعوة الإسلامية لِمَا وجدوا فيه من خلق رفيق وحسن معشر حتى كللها الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍعَظِيمٍ ﴾[2]، وقولِه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[3]، فهذه الصفات التي تحلى بها النبي الكريم قد استقى منها صحابته وتعارفوا عليها، فأصبحتْ الرحمة عندهم مستقاة من رحمته (صلَّ الله عليه وآله وسلّم)، وإن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد (صلَّ الله عليه وآله وسلَّم) خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ " على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة ، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطعَ على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الآبدين[4].

لكن على الرغم من هذه الأدوار الجسام التي قام بها هؤلاء المقربون من النبي (صلى الله عليه واله وسلَّم) هناك من هجاهم في حياتهم وحتى عند مماتهم ليتجرأ على كل الآيات والأحاديث التي قِيلت في حقهم فيكتب أبياتاً بقي الكون متعجباً من الجسارة التي تحلى بها صاحبها.

من هنا جاءت فكرة البحث لنسلّط الضوء على أهم ما صدحت به ألسن الشعراء في التعرض بالشعر للخلفاء والأمراء, لنتلمس الدوافع الكامنة وراء قول الشعر فيهم, فيما كان دافعاً دينياً (مذهبياً), أو دافعاً سياسياً, وأهم معالم الأبعاد الفنية فيما قيل, عند الوقوف على أهم الشعراء في ذلك.

أوَّل من تشفى بقتل صحابي هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، حين أستشهد حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) في معركة أحد، وبقرتْ بطنه واستخرجتْ كبده، تشفياً منها، لقتل أبيها وأخيها وعمها في معركة بدر، والذي أورثها الحزن الشديد، ولم تكتفِ بهذا القتل، بل تعدهم بأنَّ الحرب سجال ولهم كرات وكرات، فتقول:

شفيتُ من حمزة نفسي بأُحد ** حين بقرتْ بطنه عن كبدِ

أذْهبَ عنِّي ذاك ما كنتُ أجد ** من لذعة الحزن الشديد المعتمدِ

والحرب تعلوكم بشؤبوب برد ** نُقْدمُ إقداماً عليكم كالأسدِ[5]

وحين سنحتْ الفرصة لأهل المطامع الدنيوية بعد أنْ دبَّتْ الخلافات بين صحابة رسول (صل الله عليه وآله وسلم) لينال كل منهم غنيمته التي كان يطلبها من هذا الجانب أو ذاك، ومن هؤلاء رجل يدعى ابن جرموز، كان قد اشترك في واقعة الجمل مقاتلاً مع علي (عليه السلام)، فلما رأى الزبير يصلي بوادي السباع أتاه وقتله وجاء براس هذا الصحابي الى عليٍّ يريد المغنمة والجائزة، التي تعطى لكل مقاتل ، وجاء بسيف الزبير إليه فقال الإمام : إنَّ هذا السيف طالما فرج الكرب عن رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم)، ثم قال : بشر قاتل ابن صفيَّة بالنار[6].

ليقول ـ أيُّ ابن جرموز ـ أبياته التي تُنبىء عن مدى التعدي والاستخفاف بحياة هؤلاء الرجال العظماء الذي حملوا الإسلام على عاتقهم:

أتيــتُ عليــاً بــرأس الزبيــ ** ــر أرجــو لديــه بــه الزّلفــهْ

فبشَّــرَ بالنّــار إذ جئتــه ** فبئــس البشــارة والتّحفــهْ

وسيّــان عنــدي قتــل الزبيــر ** وضــرطة عنــز بــذي الجحــفه[7]

فمهما كان الخلاف يبقى الزبير ابن صفية عمة الإمام علي (عليه السلام) ورفيق دربه وصاحب طفولته وقد اشتركا في حروب رسول الله جلها، وكانا من حواريي رسول الله وموضع امانته والمقربين له نسباً ، فكانت العاطفة الجياشة التي يحملها عليٌّ للزبير كبيرة جداً، فالزبير ذلك البطل الهمام يُقتل غدراً ويساوى بضرطة عنز فهذا الذي لا يستطع عليٌّ السكوت عنهفمن العجب أنْ يصبح صحابي معادلاً لضرطة عنز في صدر الإسلام، وهي رؤية تعبر عن إنحلال أخلاقي[8].

وهناك من أغرته الدنيا بزينتها وزخرفها ليلقي بنفسه في التهلكة وتجعله يتجرأ على الصحابة بسبب إغرائه بالمنصب السياسي الذي وعده به ابن زياد ولي الخليفة الأموي يزيد بإعطائه ملك الري، تلك المدينة التي كانت إحدى أمنيات عمر بن سعد التي بسببها دخل الحرب ضدَّ الإمام الحسين (عليه السلام) حتى قال أبياته المشهورة في موقعة كربلاء:

فواللّــه مــا أدري وإنــي لحائــرٌ ** أفكّــر فــي أمــري عــلى خطــرين

أأتــرك ملــك الــرّي والــرّي منــيتي ** أم أرجــع مأثومــاً بقتــل حســين

حسين ابن عمي والحوادث جمّة ** لعمــري ولــي فــي الــرّي قــرة عــين

وإنَّ إلــه العــرش يغفــر زلّتــي ** ولــو كنــتُ فيهــا أظلــم الثقــلين

ألا إنَّمـــا الدنـــيا بخـــير معجّـــل ** ومـــا عاقـــل بـــاع الـــوجود بـــدين

يقولـــون إن اللـــه خـــالـــق جنـــةٍ ** ونـــــار وتعذيـــب وغـــلّ يديـــن

فـإن صـدقوا فـيما يقولـون فإننـي ** أتـوب إلـى الـرحمن مـن سنتيـن

وإن كـــذبوا فـــزنا بدنـــيا عـــظيمة ** وملـــك عظيـــم دائـــم الحجليـــن[9]

ما نلمحه في هذه الأبيات هو مدى التخبط والحيرة والقلق اللاتي أصبنَ صاحب الأبيات فهو يصرح في هذا الأمر – الحيرة– في أوَّل بيت (وإني لحائر) بل واكده بـأكثر مـن أداة للتوكيـد (إنَّ، لام المزحلقـة) لتعطـي انطباعـاً علـى أنَّـه كـان لا يملـك خيـاراتٍ كثيـرةً، إمَّـا أن يشـارك فـي الحـرب ويقتـل الحسـين بـن علـي بـن أبـي طالـب (عليهمـا السـلام) أو يُضـيّع حلمـه الـذي طالمـا تمنـاه، ومـا إنْ غلبتـه نوازعـه الدنيويـة وتشرب حبُّ الرئاسة في قلبه بدأ يعطي لجرأته أعذاراً واهيه علَّها تشفع لـه فـي رد كـلام النـاس عنـه منهـا أنَّ الري هـي قرة عينـه والأمل المنشود بـأيّ وسيلة يتحقق هذا ليس مهما، أنَّ الله يغفر الذنوب جميعا فلما لا يغفر ذنوبه هو حتى وإنْ كانت بظلم الثقلين، بعد ذلك استسلم للأمر الواقع وادرك أنَّه قد اختار أمر القتال لينال الريَّ، أخذ يشكك بوجود الجنة والنار والحساب والعقاب واليوم الآخر ويعطي حكمةً فاسدةً ((وما عاقل بـاع الوجود بـدين، وأتوب الـى الـرحمن من سنتين)) فعمر يحـاول أن يقلل من ذنوبـه علـى الأقل ويحـاول إيهامنا بقله الذنوب المترتبـة عليه وأنَّه باستطاعته أن يتوب منها بعد تسلمه المنصب.

وآخر يتبجح بقتل سبط رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) وجعل الهدف من هذا القتل هو المغنم والذهب والفضـة بالمقابل هو قد قتل خير النـاس أمَّـاً وأباً يقول سنان بن أنس:

أوقـــر ركـــابي فضـــةً أو ذهبـــاً ** فـــــقد قتلـــــتُ الســـــيدَ المحببـــــا

قتلــت خيــر النــاس أمَّــاً وأبــا ** وخيـــرهم إذ ينســـبون نســـبا[10]

الملاحظ أنَّ هؤلاء المتمردون كان همهم الأول والاخير هو المال والغنائم، ولكنهم أدركوا إذا لم ينتموا إلى حزب أو قوم يساعدوهم في الوصول إلى مبتغاهم ضاعوا في فضاء الصحراء الرحيب، لذلك كان وقوفهم في صف هذا والحرب ضدَّ ذاك كانتْ وراءه دوافعٌ شخصيةٌ دنيويةٌ بحتةٌ.

وقد ادتْ الأحزاب السياسية دوراً واضحاً في تأجيج روح الخلاف والتواتر والتهاجي بين الشعراء كلّ منهم يدافع عن الحزب الذي ينتمي إليه يمجد انتصاراته، ويرثي قتلاه ويهجوا الأحزاب الأخرى التي تخاصمه، يذكرهم بهزائمهم التي مُنيوا بها ومتشفياً من قتلاهم بسخريةٍ، وفي الوقت نفسه يهجوا المبادىء التي قام عليها ذلك الحزب، والأمور المقدسة لديه، تبقى آثارها في نفوس الخصم، كما جاء في قول الحكيم بن عباس الكلبي المعروف بـ(أعور الكلب) في مقتل زيد بن علي:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلةٍ ** ولم أرَ مهدياً على الجذع يصلبُ

وقستم بعثمان علياً سفاهةً ** وعثمان خيرٌ من عليٍّ وأطيب

كأنَّ الشاعر في حوارية مع شاعرٍ آخرٍ يبرز عليه قوته الحزبية، واظهار طاقاته الكامنة التي يختزنها، بل يهزأ من المذهب الآخر ويضرب بعقائده بسخريةٍ لتشتفي النفوس حين تدمي الطعنات نفوس الخصوم، ومن أبرز العقائد التي آمن بها الشيعة عقيدة المهدي ((وهو الإمام الذي ينقذ العالم مما فيه من شرور وآثام، وكان زعماؤهم يشيعون دائماً أن هذا المهدي أو المخلِّص سيأتي))[(11)], فشاعر يستنكر وجود هذا المخلِّص ويسخر ممَّن قال بذلك، ومن ثمَّ يعرج على العصبية القبلية ومسألة التفضيل والتمييز بين الصحابة، لتحريك الضغائن النفوس التي تعكِّر صفو الدين وتفتح أبواب الباطل لقد حشَّد الشاعر المفردات الموحية على التحريض التي لا

تحمل أيَّ معنى من معاني الشفقة والرحمة والشاعر أراد بهذا لإعلان ولاءه لبني أمية وينال عندهم حظوة.

والسيَّد الحميري الشاعر المخضرم الذي عاشر عشرة خلفاء خمسة من بني أمية وهم (هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد) ومن بني العباس خمسة أيضاً هم (أبو العباس السفاح وأبي جعفر المنصور والمهدي والهادي وهارون الرشيد) كان متشيعاً أظهر حبه لآل بيت رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) أمام الخلافة التي كانتْ تكتِّم الأفواه وقد يصل الأمر إلى القتل للذي يظهر تشيعه ومخالفة للسلطة، إذ كان يرى ما يراه كلُّ الشيعة بأنَّ علياً (عليه السلام) هو الخليفة الشرعي من بعد رسول (صل الله عليه وآله وسلم) فقد وصل بغضه لوالديه لأنَّهما ابغضا عليّاً فقال:

لعـــن اللـــهُ والـــدَّيَّ جميـــعاً ** ثـــمَّ اصلهـــما عـــذاب الجحيـــمِ

كفـرا عنـد شـتم آل رسـول اللـ ** ـه نسـل المهـذب المعـصومِ[12]

فإذا فعل هذا مع والديه فكلّ جرأة سيقولها هي هينةٌ بالنسبة اليه، فأيُّ حبٍ يصنع هكذا بالبشر يصله لمرحلة الدعاء على والديه وتمني وقوعهم في جهنم، وإنْ تحل عليهم لعنةٌ من الله بسبب بغضهما لعلي وأبنائه(عليه السلام).

وتناول في الهجاء أمُّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) واثنين من الصحابة هما طلحة والزبير (رضي الله عنهما) بعد خروجهم لحرب الإمام عليٍّ (عليه السلام) في واقعة الجمل في البصرة يقول:

جـاءتْ مـع الأشـقين فـي هـودجٍ ** تُزجـــى إلـــى البصـــرة أجنادهـــا

كأنهـــا فـــي فعلهـــا هـــــرةٌ ** تريـــدُ أنْ تأكـــل أولادهـــــا[13]

الشاعر رغم خطأه الجسيم بتناوله زوج رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) وصاحبيه، إلا أنَّه عبر بكلِّ صدقٍ عن المذهب الذي أختاره وهو مذهب (التشيع)، إذ

كان لا يرى غير عليّ (عليه السلام) هو الممثل الحقيقي للإسلام بعد رسول، إذ ابتعد عن مبدأ (التقية) التي عرفها هذا المذهب، وصدح بكلِّ ما أستطاع صوته إيصاله إلى الناس، فالانتماء عنده أولى من أيِّ شيءٍ حتى لو كان أمة وأباه.

ثانياً: التشفي من الخلفاء والأمراء:-

الخلفاء هم أيضاً نالوا نصيبهم من الشعراء أول ما يطالعنا في جرأته هو عمران بن حطان شاعر الخوارج بقصيدته التي يمدح فيها قاتل أمير المؤمنين (عليه السلام) عبد الرحمن بن ملجم والتي يقول فيها:

لله در المـــرادي الـــذي فتكـــتْ ** كفـاه مهـجةَ شـرِ الخلـق إنسـانا

يـا ضـربةً مـن تقـيٍ مـا اراد بهـا ** إلاّ ليبلـغ مـن ذي العـرش رضـوانا

إنـــي لاذكـــره حيـــناً فاحسبـــه ** أوفـــى البريـــة عنـــد الله ميزانـــا

أكـرم بقـومٍ بطـون الأرض أقبـرهم ** لـم يخلطـوا دينـهم بـغيـاً وعـدوانا[14]

ابن حطان يعد ضربة ابن ملجم لأمير المؤمنين (عليه السلام) ضربة إيمانٍ وتقى أراد بها صاحبها التقرب إلى الله والدخول إلى الجنة، إذ لم تكن ضربة لمصلحة دنيوية كان يحاول صاحبها الحصول عليها، بل على العكس كان يسعى في طلب رضا الخالق العظيم ويطلب التقرب منه، وهو بفعله هذا قد حصل على الغاية الاسمى التي ينشدها جميع الخلق وهي الفوز بثقل الميزان فثقل الميزان هو ما كان ينشده ابن ملجم من فعلته هذه، حتى يتبجح الشاعر ويفخر بهذه الفعلة لان أمير المؤمنين (عليه السلام) في نظرهم هو شر الخلق من الإنس (مهجة شر انسانا) فالخوارج قد آمنوا بعقيدةٍ خاصةٍ بهم فقد عدُّوا كل من يخالفهم هو مشرك ولا يستحق العيش ويجب قتله لأنَّه قد خالف الله ورسوله بمخالفته إياهم، فشعرهم نبع من عقيدةٍ منحرفةٍ جاء ليوافق أهواءهم وأمزجتهم ((يعد شعر الخوارج نصا ملفتا للنظر، اذ يتظافر في ثناياه الاتجاه

العقدي وهو يؤسس لنظرته في الدين والوجود، ويبني مفاهيمه الفنية على اساس من الموروث النصي الديني ومعطيات البيئة العربية))[15].

لكنهم من جهة أخرى ينظروا إلى عليّ (عليه السلام) على أنَّه رجلُ سياسةٍ وخلافهم معه سياسياً ايضاً وطالبوا بالحكم الذي لم يقتصر على قريش بل يجب أنْ يحكم الأمة من هو اكثرهم ديناً وورعاً وتقوىً، لذا أنشد شاعرهم ابن ابي مياس المرادي قوله:

نحن ضربنا مالك الخير حيدرة ** أبا حسن مأمومه فتقطرا

ونحن خلعنا ملكه من نظامه ** بضربة سيف إذ علا وتجبرا[16]

الشاعر يؤكد على أمر هو اجتماع الخوارج على قتل الإمام (عليه السلام) بدليل تأكيده على الضمير (نحن) أي أنَّهم قاموا بالأفعال التي سبقتْ الضمير (ضربنا، خلعنا) مجتمعينَ، و(نا) المتكلمينَ التي جاءتْ فاعل متصل ليؤكد على تغلغل واتصال القضية في كل أحشاء الخوارج، ومجَّدَ الخوارج هذا الانتصار كثيراً، وعدَّوه من أهم إنجازاتهم التي حققوها، إذ يمكن أن نلمح مدى السعادة والابتهاج التي تملأ فم الشاعر وهو ينشد أبياته مزهواً منتشياً، وقد حاول الإشارة إلى مدى شجاعة الخوارج من خلال تعداد صفات الخصم، فخصمهم لم يكن سهلاً بل هو صعب المراس بطلاً شرساً قد خَبِرَ الحروب واعتصرته الأيام فهو (مالك الخير، وحيدرة، وابو الحسن، والعلي، المتجبر) فالانتصار الذي يأتي على رجلٍ يحمل هذه الصفات له طعم مختلف بلى شك.

تناول الشعراء بعض الخلفاء والأمراء في قصائدهم وأظهر فرحهم ومسراتهم بقتلهم أو بهزيمتهم في معركة أو بسبب نائبة حلتْ بهم، جعلتْ هؤلاء الشعراء يطربون جذلاً لهذه الحادثة، ويظهرون الشماتة وتشفي، ومنهم الوليد بن يزيد الذي راح يطرب ويغني عندما وصله بريد نعي عمه الخليفة هشام بن عبد الملك:

طاب يومي ولذَّ شرب السلافة ** إذ أتاني نعي من بالرصافة

وأتـــانا البريـــد ينعـــى هشامـــاً ** وأتـــــانا بخـــــاتمٍ للخلافـــــة

فاصـطبحنا بخمـر عـانة صرفـاً ** ولـهونـــا بقينـــة عـــزَّافة[15]

الوليد الذي عشق الخمر وبسبب هذا العم الذي أراد بكلِّ وسيلة أن يبعده عن السلطة، إذ رأى فيه المزاحم لابنه على السلطة، فقد تركتْ المواقف الكثيرة بينهما طابعاً سلبياً تجاه عمه الخليفة، إذ أثرتْ فيه نفسياً وعاطفياً وخلقياً، أظهر نقمته على هذا العم وخزين الحقد الدفين حياله:

هـلـــك الأحـــول المشـــو ** مُ فـقـــد نـــزل المـطـــر

ثمـــت استخـــلف الوليـــد ** فـقـــــد أورق الشـجـــــر

فـشـكـــــروا الـــله إنَّـــه ** زائـــد كـــلَّ مَـــن شكـــر[17]

الشاعر اراد تبيان أنَّ موت هشام لم يكن ذا فائدة له فقط بحصوله على الخلافة بل إنَّ هذا الموت فائدته عمَّتْ المجتمع بصورةٍ عامةٍ، فبموته جاء رزق الله للبشر إذ عمتْ الأمطار البلاد بعدما كان وجود هشام مانعاً لنزولها نتيجة لشؤمه، وعدم شكره لله، لكنّ الدنيا قد تبدلتْ بوصوله للخلافة ونمت وهذا دليل على الخير والبركة، وزيادة من الله لشكره وتقواه!!!. وفي موقف ثالث يطالعنا هو يتمنى لو أنَّ هشاماً لم يمت ليس حباً به بل ليرى ما زرعه الذي زرعه قد حصده بنفسه:

ليـت هـشاماً عـاش حتـى يـرى ** مكيالـــه الأوفـــر قـــد طُـــبعا

كلنـــاه بالـــصاع الـــذي كالـــه ** ومـــا ظلـــمناه بـــه إصبعـــا

ومـــا أتينـــا ذاك عـــن بدعـــةٍ ** أحلـــه الفرقـــان لـــي أجمعـــا[18]

فلمَّا آلتْ الخلافة إلى الوليد أخذتْ الأفراح المسرات تعم البلاد حتى كأنَّه أدرك ثأره من عدوه بعد زمنٍ طويلٍ، ففي هذه الابيات أخذ يحاججه, ويأتي بحجة من القرآن الكريم وتدل على ما اراده فمنها آية الميراث وأنَّ الخلافة هي تركته التي خلافها إياه أبوه، أو آية القصاص بأنَّ الجاني سيأخذ ماجناه يوماً ما، أو آية الأمانة التي عرضتْ على السماوات والأرض والجبال ولم يحملنها لكنَّ الإنسان بظلمه وجهله حملها، فالخلافة هي الأمانة التي إئتمنها أبوه يزيد عنده ولم يصنها ولم يرجعها إلى أصحابها الحقيقيين.

والوليد بن يزيد قد ذاق من نفس الكأس التي سقاها عمه هشاماً بن عبد الملك، فبعد تسببه بقتل خالد القسري غضبتْ عليه القبائل اليمنية وتعاهدوا على قتله فأتتْ ابنه يزيد بن الوليد فأجبروه على البيعة وخلع الوليد ، فبايعوه سراً[19] فقال شاعرهم خلف بن خليفة:

لقد سكّـَتْ كلبٌ وأسياف مذحجٍ ** صدىً كان يزقو ليله غير راقدِ

تركنا أمير المؤمنين بخالدٍ ** مُكبًّا على خيشومه غير ساجدِ

فإنْ تقطعوا منَّا مناط قلادةٍ ** قطعَّنا بها منكم مناط القلائدِ

فإنْ تقطعوا عن أذان فإنّنا ** شغلنا الوليد عن الغناء الولائد[20]

العصبية القبلية الجاهلية تتجسد في هذه الأبيات واضحة، فثار يمثل كيان الشخص وكرامته يتمثل بذلك اعتزاز العربي بعصبيته، وصون كرامته وكذلك تمثِّل الحالة الاستلاب الذي تعيشها السلطة الأموية غير القادرة على حماية رأس الهرم فيها وهو الخليفة، بل والأكثر من ذلك وصول القبائل إلى هذه القوة التي تستطيع بها خلع الخليفة أو قتله إذا ارادوا وتحت مرأى ومسمع من ابنه الذي يطمح لخلافة والده وبتنصيب ممَّن قتله.

التشفي هو نتاج ذكرى مؤلمة تبقى عالقةً في نفوس الشعراء تركها الخلفاء أو الأمراء فيهم، فهم لا يقوون على ردّها لهم في حياتهم خوفاً على أنفسهم من الموت وعقوبة السلطة، لذلك تأتي لهم البشرى وتنطلق ألسنتهم ابتهاجاً بنصرٍ وخلاصٍ ممَّن ترك غصةً في قلوبهم وفي ذلك يقول سراقة بن مرداس(*) يمدح إبراهيم بن مالك الأشتر وأتباعه لقتلهم عبيد الله بن زياد:

أتاكم غلامٌ من عرانين مذحجٍ ** جريءٌ على الأعداء غير نكولِ

فيا ابن زيادٍ بُؤْ بأعظم مالك ** وذق حد ماضي الشفرتين صقيل

ضربناكم بالغضب الحسام بحده ** إذا ما أبتانا قاتلاً بقتيلٍ

جزى الله خيراً شرطة الله إنَّهم ** شفوا من عبيد الله أمس غليلي[21]

الشاعر يشعر بمشاعر داخلية تتطلب منه انفعالاً داخلياً ازاء الموقف الذي استجدَّ على الساحة، فالحواجز التي كانتْ جاثمةً على صدره وحرمته من أطلاق لسانه للبوح عمَّا في صدره قد زيلتْ، وأصبح يبحث عن الصور التي تعبّر عما في داخله ومن مشاهدات عاناها، ليظهر بشكلٍ عكسي مزهواً فرحاً مادحاً لمن ساعده في القضاء على عدوه مبيناً بسالته وشجاعته وحدة سيفه، ويدعو لمن كان معه سائلاً الله أنْ يتقبل عملهم هذا ويجزيهم عليه، من ثمَّ تستعيده مشاعره للحديث عن السبب الذي جعله يطرب جذلاً.

العصيبة القبلية التي أعادها الأمويون للظهور، أخذتْ تقوى في نفوس العامة وأصبح كلا منهم يعرف باسم قبيلته ويفتخر بها وتقوى شوكته في ظلها ((وبعد ذلك راح إطار العصبية القبلية يندح حتى وصل أطراف الدولة الإسلامية، فقويتْ دعوى الجاهلية بالانتماء إلى القبيلة، واستصراخها للهياج والشر، فعاد الناس حيث كانوا قبل الإسلام!!..))[22], ومن الملاحظ في هذا العصر تسمية الأشخاص بأسماء قبائلهم

مثل الحجاج الثقفي والمختار الثقفي والأعشى همدان ويزيد بن قيس الكلبي والكميت الأسدي ...الخ

تناول الشاعر أعشى همدان العصبية القبلية في تشفيه من قتل المختار بن يوسف الثقفي وتمنى لو تظفر قبيلته همذان بقبيلة المختار والحجاج بن يوسف وهي ثقيف إذ قال:

إنَّ ثقيف منهم الكذابانْ
كذابها الأول وكذاب ثانْ
أمكن ربي من ثقيفٍ همدان[23]

يُظهر الشاعر حقده وكرهه الشديد لقبيلة ثقيف التي يرى فيها أنَّها أنجبتْ اثنين من رجالها عرفوا بكذبهم وهم الحجاج الذي مازال على قيد الحياة، والآخر وهو المختار الثقفي الذي مات، فهو ـ أيُّ الشاعر ـ قد ضاق ذرعاً في حياة المختار حتى قال:

أيقتلنا المختار ظلماً بكفره فيالك دهراً مرصداً بالعجائبِ[24]

وهذا الانتصار الذي من عجائب الدهر سرعان ما تبدل، ليشتفي قلب الشاعر بعدما شاهد المختار وأنصاره قتلى مجندلين، على الرغم من أنْ الكثير من أنصار المختار كانوا من قبيلة همدان:

فبشِّر شيعة المختار أمَّا ** مررتُ على الكويفة بالصغارِ

أقرَّ العين صرعاهم وفلٌ ** لهم جمٌّ يُقتَّل بالصحاري

وما أنْ سرَّني إهلاك قومي ** وإنْ كانوا وجدِّك من خيارِ

ولكنِّي سررتُ بما يلاقي ** أبو إسحاق من خزيٍ وعارِ[25]

من البديهي أنْ يبتهج الشاعر حين يرى خصمه في هذه الصورة التي رسمها لهم في شعره، حتى وإنْ كان خيار أبناء عمومته قد لاقوا نفس المصير الذي لاقاه

المختار، فهو يعترف بكونهم خياراً، وحزنه عليهم ظاهراً لكنَّ لا يستطيع إخفاء سعادته بما وقع للمختار.

الخاتمة

في نهاية حديثنا نقول : مهما كان عمل الإنسان مشيناً وكثرتْ إساءته لا يجوز إظهار الشماتة بموته، والنبي (صلَّ الله عليه وآله وسلَّم) قال: ((لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك))[26] فالشعراء أظهر فرحهم وجذلهم وتشفيهم بموت بعض الصحابة والخلفاء، فبعضهم كان طالباً للمال والتقرب إلى حزبٍ بإظهار تشفيه بمقتل شخصٍ من حزبٍ آخر، ومنهم من كان بينه وبين الشخص الميت ذكرى أليمة وقد أرقتْ حياته وبقيتْ تلازمه طوال حياته، حتى مات مسببها، فصار حقاً عليه أنْ يظهر سعادته شاكراً من أدخل هذه السعادة على قلبه داعياً له.

الهوامش:

1سورة الشعراء: 214.

2سورة القلم: 4.

3سورة آل عمران: 159.

(4)فضل الصحابة رضوان الله عليهم (شبكة الانترنت الدولية)https://properwaytoaiiah.blogspot.com

5 السيرة: ابن هشام: 69/3, ديوان الزنادقة: 83.

6 أسد الغابة: 252/1.

7 المصدر نفسه: 252/1.

(8) ينظر: شواغل شعرية دراسات نقدية في الشعر القديم: 124.

(9) تاريخ الطبري

10 مروج الذهب ومعادن الجواهر: 71/2.

(11)التطور والتجديد: 93.

(12)ديوان السيد الحميري: 157.

(13)م.ن: 62.

(14)ينظر: الأغاني: 147/16، الملل والنحل: 120.

(15)شعر الخوارج، الدكتور إحسان عباس: 9.

(16)البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي(774هـ)، دار المعارف، د. ط ، بيروت ـ لبنان، 1992م : 7/ 329.

(17) ديوانه: 47.

(18) ديوانه: 47.

(19) يُنظر : العقد الفريد, أحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: الدكتور عيد المجيد الترحيني: 5/ 206.

(20)م.ن: 208/5.

(*) هناك ثلاثة أشخاص سمُّوا بهذا الاسم.

(21) تأريخ الطبري: مُحَمَّد بن جعفر الطبري: 1107.

(22) الإيجابية والسلبية: 142.

(23) ديوان أعشى همدان, تحقيق: الدكتور حسين عيسى أبو ياسين: 61.

(24)المصدر نفسه: 29.

(25)ديوان أعشى همدان: 30.

(26)بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الأطهار ، للعلامة مُحَمَّد باقر المجلسي، احياء الكتب الإسلامية، د.ط، قم المقدسة- إيران، د.ت : 72 / 213.

المصادر والمراجع:

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن محمد الجزري ابن الأثير (ت630هـ)، دار الحزم،ط1،بيروت ـ لبنان، 2012م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني(ت 356هـ)، نسخة مصورة عن طبعة بولاق الأصلية الناشرون صلاح يوسف خليل، دار الفكر العربي، بيروت ـ لبنان، 1970م .
- الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، علي الشعيبي، إتحاد الكتاب العرب، ط 1، 2002م
- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي(774هـ)، دار المعارف، د.ط ، بيروت ـ لبنان، 1990م.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الأطهار ، للعلامة محمد باقر المجلسي، احياء الكتب الإسلامية، د.ط، قم المقدسة- إيران، د.ت : 72 / 213.
- تاريخ الطبريمحمد بن جعفر الطبري (ت310هـ)، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

❖ التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط7 ، القاهرة ـ مصر، د.ت .

❖ ديوان أعشى همدان, تحقيق: الدكتور حسين عيسى أبو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر، ط1، الرياض، 1983م.

❖ ديوان الزنادقة وكُفريات العرب، جمع وتحقيق جمال جمعة، دار الجمل، ط1، كولونيا- ألمانيا ، 2007م .

❖ ديوان السيد الحميري، نواف الجراح، دار صادر، ط1، بيروت، 1999م.

❖ ديوان الوليد بن يزيد، جمع وترتيب المستشرق الإيطالي ف. جبربالي، مطبعة ابن زيدون، ط1، دمشق ـ سوريا، 1937م.

❖ السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام، حققها وضبطها ووضع فهارسها مصطفى السقا وآخرون، دار التراث العربي، بيروت لبنان

❖ شعر الخوارج، الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة, ط2, مصر.

❖ شواغل شعرية دراسات نقدية في الشعر القديم، الدكتور ضياء غني العبودي، دار البداية، ط1، عمان، 2014م.

❖ العقد الفريد, أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: الدكتور عيد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1984م.

❖ مروج الذهب ومعادن الجواهر، للإمام أبي الحسن بن علي المسعودي (ت346هـ)،اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، 2005م.

❖ الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت548هـ)، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط2 ، بيروت ـ لبنان، 1992م .